في الخَلق والخُلق، لم يكن بينهما في الرجولية والشجاعة كثير فرق،
يتجاريان في كل وقت في ميدان المناقب لاحراز قصب السبق، فكانا
كفتي ميزان، وفي مضمار الفروسية رهان، فاتفق ان احدهما صادف
علجاً من الكرج، في الجراءة كالاسد وفي الجثة كالبرج، فنازله ثم
قتله، وقطع راسه والي تيمور حمله، ففخم شانه، واعلي علي الاقران
مكانه، فاثر ذلك في نديده، فكانه قطع حبل وريده، ثم افتكر
في شيء يصنعه، يضع من نديده ويرفعه، وكان اسمه بير محمد
ولقبه قنبر، فلم يرا اكبر من مراقبة ذلك الجسر ولا اشهر، فاعتمد
علي الله سبحانه واحده، واستكمل ماله من اهبة وعده، ورصد
بجسه في بعض الليالي، ولطا في مكان خالي، ولا زال يترقب
النجوم، ويترصد عليهم طوالع الانقضاض والهجوم، ويشبر
تلك الفتن بيديه ويذرع، ويمشي تارة علي بطنه واخرى على
اربع، الي ان طرح الضوء نقابه، وسلخ الجو اهابه،
ورجع النصارى الي كسرهم، وتعاونوا علي رفع جسرهم، طفر
بير محمد الي الجسر فقطع حباله، وتابع عليهم من جنبته نباله، ولم
يمكنهم من رفعه، ولا غيّر موضوعه عن وضعه، فتراكموا عليه
بالنبال والاحجار، وارسلوا عليه من ذلك السما المدرار، ولا يرد
عما هو بصدده ولا يلتفت الي جنبه، ويتلقى ما يصدر من مراشيم
نبالهم واحجارهم بالقبول علي راسه وعينه، ولم يزل علي المكافحة
والمناضحة، والمكاشحة والمكالحة، حتى تعالى النهار، وعض
الكون من فعاله انملة التعجب، واخذ عين المكان الانبهار، وكان
المحاصرون لها كفوا عن القتال، وتيمور قد عزم كما ذكر علي الترحال
وكان سرادقه منصوباً بمكان عال، فناداه لسان الفتح، وخاطبه
منادي النجح،

شعر

لا تيأسن من مطلب لمقطع الورى اسبابه

ان

98

ان اغلقوا ابابهم، فالله يفتح بابه،
فتراآى علي باب القلعة من بعد كان ناساً يتواثبون، واشباح
طايفة يتكالبون ويتضاربون، فقال للقبيلة اي اولي النجدة
والعون، اني اري ما لا ترونه، فانعموا معي النظر ثم اسرعوا نحو
المعسكر، وايتوني بحقيقة الخبر، فاندفعوا يستشفون لذلك
خبراً، ويستكشفون لسرايره سترا، وهم ما بين عادٍ من النمر
اعدى، وجارٍ من الاسد اجرى، وكل منهم في عدوه وعداوته
ما فرط شبرا، ولما زالوا يتجارون علي ذلك ارسالا وتترى، كانهم
الشياطين نواهض ووثاب وعداء وهم جراء حتى ادركت مقدمتهم
بير محمد وهو في غمرات الموت بناره يتوقد، وقد صار لسهامهم
غرضا، وكاد جوهره ان يصير عرضا، فلما راهم من بعيد عاش
وحصل له الانتعاش، وزال عنه الارتعاش، وتلاحقت بهم
الصناديد، فكفت عنهم تلك الافسال الرعاديد، وحين عجزوا عن
رفع الجسر وولوا الاعقاب، عزموا ان يدخلوا الحصن ويوصدوا
الباب، فاختلط بير محمد معهم، ودخل الحصن ومن اصاده منعهم
تلقفوه بالسيوف، ورضخوه باحجار الحتوف، وهو يابي الا المدافعة
ويجتهد في مراجعة الممانعة، لا يشعر بما يناله من رمي الحجر وجراح
الحديد، كانه مثالة عراه الفناء في الغناء في التوحيد، الي ان
غشيتهم تلك الليوث، واندفقت عليهم بصواعق الغضب من سماء
النجدة سيول الغيوث، فتشبثت اسود المنايا بتلابيبهم
وخلصوا بير محمد من مخاليبهم، ثم قبضوا على النصارى
واخرجوا ما لهم فيئا وجروهم سبايا واولادهم اسارى، وحملوا الى
تيمور بير محمد، واخبروه بما قصده في ذلك وتعمده، وتفقدوا
ما به من جراح ادمى، فاذا هي ثمانية عشر جرحا كل منها يدمي
فشكر له فعله، ووعده مواعيد جزله، واحله المحل العزيز،